The phenomena of Self-esteem and Audacity in the Andalusian Poetesses: Psychological study

Ruqaya Awadh Harib Mahmir

MA in Arabic Language/ Literature and Criticism

University of Sharjah/ College of Arts, Humanities and Social Sciences

U18104381@sharjah.ac.ae

Prof. Abdulrahman Bouali (Ph.D.)

University of Sharjah/ College of Arts, Humanities and Social Sciences/ Department of Arabic Language

Abouali@sharjah.ac.ae

Prof. Salah Jarrar (Ph.D.)

University of Jordan

College of Arts/Department of Arabic Language

Salahjarrar@hotmail.com

DOI: https://doi.org/10.31973/aj.v2i147.4095

Abstract:

Poetry is an emotional state that has different psychological influences. Literature and literary criticism are closely linked to psychology. Any literary work is enveloped in a feeling. What mixes with this feeling are the experience of the creator, the nature of his life, and other factors. Poetry came as a mirror that reflects his spirit and thought. Therefore, his behavior is embedded in his poetic verses, so psychology comes to unveil the interpretation and analysis. When comparing the creative woman and the creative man, it is found that the female poet is more clear with regard to emotions, and she reveals her feelings insinuatingly and frankly.This research will present two of the psychological phenomena evident in the poetry of Andalusian poets: With self and boldness, to shed light on it and interpret its causes and goals.

Keywords: Andalusian women,Psychological study, , women's poetry.

ظاهرتا الاعتداد بالنفس والجرأة في شعر الشواعر الأندلسيات: دراسة نفسية (٨٩٧.٩١هـ / ٧١١ .١٤٩٢م)

الباحثة رقية عوض حارب مهمير
ماجستير في اللغة العربية/ أدب ونقد/
جامعة الشارقة ٢٠١٧م
U18104381@sharjah.ac.ae

الأستاذ الدكتور عبدالرحمن بوعلي
قسم اللغة العربية/ كلية الآداب/
جامعة الشارقة
Abouali@sharjah.ac.ae

الأستاذ الدكتور صلاح جرّار
قسم اللغة العربية / كلية الآداب/ الجامعة الأردنية
Salahjarrar@hotmail.com

(مُلَخَّصُ البَحث)

يعدّ الشعر حالة شعورية تقف خلفها مؤثرات نفسية مختلفة، فالأدب والنقد الأدبي يرتبطان بعلم النفس ارتباطاً وثيقاً، فأيّما عمل أدبي يغلّفه شعور ما، ومما يتمازج مع هذا الشعور خبرة المبدع وطبيعة حياته وعوامل أخرى، فجاء الشعر مرآةً تعكس روحه وفكره، فنجد سلوكه مضمّناً بين طيّات أبياته الشعرية، فيأتي علم النفس ليميط اللثام بالتفسير والتحليل، وعند المقارنة بين المبدع المرأة والمبدع الرجل، نجد أن المرأة الشاعرة أكثر وضوحاً فيما يتعلق بالعواطف، فوجدناها تبوح بمشاعرها تلميحاً وصراحةً، فسيعرض هذا البحث ظاهرتين من الظواهر النفسية الواضحة في شعر الشواعر الأندلسيات هما : الاعتداد بالنفس والجرأة، في محاولة للوقوف عليها ،وتأويل أسبابها ومراميها.

كلمات مفتاحية: دراسة نفسية، الشعر النسوي، الشاعرة الأندلسية.

مدخل:

كان الأدب شعراً ونثراً ومازال مرآة تعكس لنا واقعاً عاشه الأديبٌ في مرحلة زمنية معينة، والشعر أغزرها وأصدقها، والمرأة الأندلسية احتوى شعرها على ظواهر نفسية متعددة، فعلى الرغم من قلة ما وصل إلينا من مقطوعاتها، إلا أنها نقلت ظاهرة شعرية نسوية في الأدب العربي، فاتضحت لنا شخصياتهن المختلفة؛ فالنفس البشرية أسبار متباينة كما هي البحار المظلمة، ولفهمها لابد أن تبحر فيها عبر ما تنطقه الألسن وتبوح به الأفعال، فجاء الأدب مترجماً لكثير مما لم ينطق وقد يكون مخبّأً بين منعطفات الكلمات من قصص وروايات، ويأتي الشعر على رأسها بريداً صريحاً يعبر عن الفرح و نقيضه. ففهم المرأة ليس بالأمر السهل ولا الخوض في أفعالها وتصرفاتها والوقوف خلف أسباب بعض منها، إلا أن الشعر كان مصداقاً في ذلك؛ إذ أدى دور المرآة التي كانت إنعكاساً للشاعرة والمجتمع الذي

عاشت فيه، والتحديات التي واجهتها، والرخاء الذي تنعّمت به، فكانت منهن الشاعرة الأميرة وابنة الشعب الأبيّة العفيفة، وصاحبة العلم والقلم والأدب، وسليطة اللسان الجريئة، والعاشقة الوفية، بين كل هذه الاختلافات نعيش مع الشواعر الأندلسيات عبر ما وصل إلينا من المقطعات الشعرية.

أولاً : الاعتداد بالنفس :

يعرّف الاعتداد بالنفس بأنه تأكيد للذات وهو ميل إلى الحاجة إلى التقدير وإظهار السلطة على الآخرين، ورغبة في القيادة والزعامة، ولا يشترط أن يكون رجلاً أو شخصاً قوياً، بل قد تكون عند الجنسين وقد تظهر عند أضعف الناس(مصطفى، ١٩٥٥، ص ٧٣). إن بعض شواعر الأندلس قد ظهر فيما وصل إلينا من شعرهن أنهنّ كنّ ممن يعتدّ بنفسه كثيراً، فجاءت أشعارهن مبينةً قيمة النفس الكبيرة لديهن، فالثقة بالنفس وإعلاء القيمة الذاتية تتكئ على عوامل معينة، وللوقوف على هذه العوامل سنعرض لبعض الشواعر ومنهن:

١. أم العلاء الحجارية :[١]

ولهذه الأبيات قصة طريفة، فكانت أم العلاء ذات حسن وجمال ومهوى آمال الخاطبين، فتقدّم لخطبتها رجلٌ كبير السن هام فيها حباً، وحاول مراراً بشتّى السبل أن يلفت نظرها إليه إلا أن شيبه وتقدمه في العمر جعل ذلك الأمر مستحيلاً، ولمّا أوغل في طلبه كانت مضطرة أن ترد عليه وتتصدّى له (جمعة، ٢٠٠١م، ص ١١٦)، فقالت (المقّري، ١٩٤٩، ص ٣٠١) :

الشيبُ لا يخدع فيهِ الصبَا بحيلةٍ فاِسمع إِلى نُصحي

فَلا تكُن أجهل مَن في الورى يبيتُ في الجهلِ كَما يُضحي[٢]

تؤكد الحجارية هنا مبدأ الاستحقاق الذاتي العالي الموجود لديها وهو وجه من أوجه الاعتداد بالنفس، فهي ترى بأنها تستحق شاباً في عمرها أو في المستوى نفسه على الأقل لا شائبا يستحيل أن تنجح الحياة معه، فهي تعبر عن هذا المعنى في قولها : فالليلُ لا يجتمع مع الصبح، فهي لازالت شابة وعلى قدر من العلم والجمال والثقافة، زد على ذلك بأنها شاعرة في زمن ومجتمعٍ يقدسان الشعر؛ كونه واجهة اجتماعية. وقاعدة ذلك أن المرأة الأندلسية لم تكن سجينة الجهل والأميّة، وأخذت بكل ما من شأنه أن يعمل على رقيّها ورفع مكانتها الاجتماعية وقد كان العلم طريقاً مفتوحاً أمامها لكسب احترام المجتمع (القرشي، ٢٠١٥ م، ص ١٩)، جاءت هذه العوامل دافعاً قوياً لاعتدادها بنفسها ورفع استحقاقها

[١] أم العلاء الحجارية: ذكرها صاحب المغرب وقال: إنها من أهل المائة الخامسة. ينظر : نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، ج٤، ص ١٦٩

[٢] البحر البسيط

بذاتها، كما هو واضح في قصتها مع هذا العجوز الذي حاول مراراً وتكراراً الفوز بقلبها؛ إلا أنها أبت ليس غروراً بل اعتداداً بنفسها وإعلاءً لمكانتها .

٢. بثينة بنت المعتمد: [٣]

تعدّ بثينة بنت المعتمد مثالاً رائعاً للمرأة الأندلسية التي غلبت الظروف بمرارتها وصعوبتها وكانت ذات جرأة محمودةٍ تنمّ عن اعتداد وثقة بالنفس، فعلى الرغم من وقوعها في الأسر وما تعرضت له من مآسٍ تجد ما تأصّل في النفس باقٍ لا تغيره الظروف الصعبة؛ فعندما وقع النهب في قصر والدها المعتمد بن عبّاد[٤] كانت هي ضمن من سبي، وما كان والداها يعلمان من أمرها شيئاً حتى وصلتهما قصيدة منها تستأذنهما الزواج، فعندما أسرت اشتراها أحد تجّار إشبيلية على أنها جارية ووهبها لابنه؛ فهي لم تفصح عن نسبها، ولمّا أراد الدخول عليها أبت وأظهرت له نسبها الطيب قائلة له : لا أحلُّ لك إلا بعقد، وإن أذنت بمخاطبة والدي بذلك فعلت، وإني أحب أن أكون قرينتك في سنة الله، أعجب أيّما إعجاب بها (فوّاز، ١٣١٢هـ، ص ٨٩)، فأرسلت لوالدها تستأذنه في قولها (نفح الطيب، ١٩٤٩، ص ٢٨٤):

اِسمع كَلامي واِستَمع لمَقالتي	فهيَ السلوك بدَت من الأجيادِ
لا تُنكروا أنّي سبيتُ وأنّني	بنتٌ لملكٍ من بني عبّادِ
ملك عظيم قد تولّى عصرهُ	وَكذا الزمان يؤول للإفسادِ
لمّا أرادَ اللّـه فرقة شملِنا	وَأَذاقَنا طعمَ الأسى عن زادِ
قامَ النفاقُ على أبي في ملكهِ	فَدنا الفراق ولم يكن بمرادِ
فَخَرجتُ هاربةً فحازني امْرؤٌ	لَم يأتِ في إعجاله بسدادِ
إذ باعَني بيعَ العبيدِ فضمّني	مَن صانَني إلّا من الأنكادِ
وَأَرادني لنكاحِ نجل طاهر	حسن الخلائق من بني الأنجادِ
وَمَضى إليك يسومُ رأيك في الرضَى	وَلأنت تنظر في طريق رشادي
فَعَساك يا أبتي تعرّفني بهِ	إن كان ممّن يُرتجى لودادِ
اِسمع كَلامي واِستَمع لمَقالتي	فهيَ السلوك بدَت من الأجيادِ
وَعَسى رميكية الملوكِ بفضلها	تَدعو لَنا باليُمنِ والإسعادِ[٥]

[٣] بثينة بنت المعتمد: أمها الرميكية ووالدها المعتمد بن عبّاد، وكانت على نحوٍ من الجمال والنادرة ونظم الشعر كما كانت أمها. ينظر : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٤، نفسه، ص ٢٨٤

[٤] المعتمد بن عبّاد: هو المعتمد على الله بن المعتضد بن عبّاد، ابن القاضي أبي القاسم ابن عبّاد ـ رحمه الله ـ، ملك مجيد، ذا أدب جمّ، عالي النظم، كان يسمى بمحمد ويُكنّى بأبي القاسم. ينظر: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٥، ص ٣٧٦-٣٧٧

[٥] البحر الكامل

الناظر في شعر بثينة بنت المعتمد هنا، والعائد لسيرتها ولاسيما في مرحلة الطفولة يجد بأن ثقتها بنفسها ساهمت فيها عوامل عدة ؛ ففي وجود أمها وأبيها معاً العامل الأكبر، فقد عُرف المعتمد بحبه الشديد للرميكية وعامل الحب بين الزوجين يعدّ التربة الخصبة للتنشئة السليمة للأطفال. أما البيت فيعدّ العامل البيئي الرئيس الذي يؤثر في ملاءمة الطفل حتى سن الخامسة والسادسة، ومن ثم يخضع لمؤثرات البيت والمجتمع الصغير الذي يعيش فيه (مصطفى، ١٩٨٣، ص ١٥٩)، ففي قصر يملؤه الحب وتقوده المودة سينشأ أفرادهُ بصحة نفسية عالية.

ووقوفاً على طبيعة الحياة التي عاشتها بثينة في القصر نجدها نشأت في كنف أبٍ يعرف بذكاء النفس وغزارة الأدب؛ فاجتمع له من الشعراء وأهل الأدب ما لم يجتمع لملك قبله من ملوك الأندلس، كما عرف بالشجاعة والسخاء والحياء والنزاهة (المراكشي، ١٩٤٩، ص ١٠١)، أما والدتها اعتماد الرميكية[٦] فهي ذات الجمال الباهر والسحر الظاهر، حسنة الحديث حلوة النادرة شاعرة بارعة ، وقد اعتنت بابنتها بثينة عناية فائقة وورّثتها مكارم الأخلاق (أحمد، ٢٠٠١، ص ١٦١-١٦٢).

فهذه البيئة التي نشأت فيها بثينة كفيلة بأن تجعل منها شخصية واثقة من نفسها، على قدر من العلم والثقافة الأدبية والشعرية فمنذ نعومة أظفارها تنهل من هذا المنهل الزاخر في قصر والدها، فنراها تعرف جيداً بأن قيمة نفسها عالية ولا يمكن أن تتنازل عن ذلك بسهولة، وهي في هذه الأبيات تتحدث عن ثلاث قضايا مهمة أولها: توضيح سبب وجودها بين يدي هذا الرجل الشهم وهو أنها سبيت عندما غُدر بوالدها[٧]، وأنها بنت ملك من بني عبّاد فيأتي البيت الثاني اعتزازاً وفخراً وإعلاءً لقيمة والدها فعند قولها : ملك عظيم قد تولّى عصرهُ، تأبى إلاّ أن توضح سبب تولي هذا المُلك العظيم والعصر التليد ، فتقول :

قامَ النفاقُ على أبي في ملكهِ فَدنا الفراق ولم يكن بمرادِ

فنراها تفاخر بهذا الأب وأنه كان ضحية الثورة التي قامت ضده، وتُبين مدى أثر ذلك عليها وهي الأميرة بنت الأمير ذات الحسب والنسب، ففرّت هاربة من قصرها الذي كان المأوى والملاذ ومرتع الطفولة والصبا والشباب، فرّت منه خوفاً من البطش والأذى الذي قد يلحق بها، وفي قضيتها الثانية: تعرض للسبي الذي تعرضت له بعد هربها، وفي قولها : إذ

---

[٦] اعتماد الرميكية، ت: ٤٨٨ هـ: شاعرة أندلسية وكانت جارية لرميك بن حجاج فنسبت إليه، ومن ثم آلت إلى المعتمد بن عباد، فتزوجها، وولد له منها: عباد الملقب بالمأمون، وعبيد الله الملقب بالرشيد، ويزيد الملقب بالراضي، والمؤتمن، وبثينة الشاعرة. ينظر: الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، ط ١٥، بيروت، ٢٠٠٢م، ص ٣٣٤

[٧] حوصر المعتمد بن عبّاد في إشبيلية، فمال بعض رجال دولته مع العدو وكادوا له وخانوه، وفوجئ في قصره فخرج من دون عدّة وعتاد، وإنه لم يعرض لهذه الجماعة حين نمى أمرها إليه؛ خوفاً من اختلاف الكلمة وافتراق الجماعة . ينظر: عزّام، عبدالوهاب، المعتمد بن عبّاد، مؤسسة هنداوي، ، ٢٠١٣م، ص ٦٣

باعني بيع العبيد، هي تحكي مرارة ما عانته في تلك المدة فأصبحت سلعة تُباع وتشترى، فتخبر والديها ومن يريدها حليلةً لها بأنها عانت كثيراً، وما مرّت به لم يكن سهلاً حتى تم بيعها لأحد تجّار إشبيلية كما تقدّم الذكر، فتعلي من شأن هذا التاجر الذي أكرمها حتى وهبها لابنه؛ لتكون زوجةً له، وأبياتها تنمّ عن ذكاء عاطفي[٨] واجتماعي كبير والفضل يعود للبيئة الأسرية التي نشأت فيها في جو من الأُلفة والهدوء والمحبة.

فيرى يونج[٩] أن الخبرة الطويلة عند الإنسان موجودة معه منذ الصغر وأي حدث لا يذهب سدى بل يبقى منقوشاً في ذهنه حتى يعود إليه في وقته الراهن، وإن الإنسان كذلك له جذور ترجع لآلاف السنين الماضية التي وصلته على شكل خبرات سابقة من أسلافه (القذّافي، ١٩٩٣، ص ١٧٠-١٧١)، وهذه الخبرة تبدأ من نعومة الأظفار حتى ما شاء الله للإنسان أن يعيش.

بثينة لم تلج في أبياتها لقضيتها الثالثة مباشرة ألا وهي: الخطوبة، بل مهّدت باختصار في ذكر معاناتها وهذا موضع ذكاء آخر؛ كيف لا؟ وهذه الأبيات رسالة مهمة من فتاة أسرت وسبيت وبيعت وشريت، تجد نفسها على أعتاب الزواج من دون والديها اللذين تعهدا بتربيتها ومراعاتها وكم انتظرا هذه اللحظات، فكانت أبياتاً للجميع لا لهما فقط وها هي تصل لما آل حالها إليه . تقول :

وَأَرادني لنكاحِ نجل طاهر حسن الخلائق من بني الأنجادِ

فها هي توضح سبب نظم القصيدة في نهايتها وتذكر محاسن هذا الرجل، وتستأذن والدها في هذا الأمر وفي قولها : أرادني لنكاح نجلٍ ، تأكيد بأنها العزيزة الغالية والتي يُسعى إليها ويطلب ودّها، وهذا الطلب هو طلب ابن التاجر، وهي رفعت رغبته لوالدها كما جرت العادة فهذا أمر يبت فيه ولي أمر الفتاة :

وَمَضى إليك يسومُ رأيك في الرضى وَلأنت تنظر في طريق رشادي

وفي قولها في البيت الأخير : وَعَسى رميكية الملوكِ، تأكيدٌ منها على أن الملوك وإن زال ملكهم يبقون ملوكاً، وهي ترى ذلك في والديها وإن ضاع الملك وهما في الأسر تحت وطأة الظلم، كما أن الباحثة ترى أن بثينة في حقيقة إخفاء نسبها عن التاجر ومن معه احترام لوالدها وقبيلتها، ونظن لو أن الأمور جرت على غير ما رأينا ما كانت أفصحت عن

---

[٨] الذكاء العاطفي: أن يكون لدى الفرد القدرة على حث نفسه في الاستمرار في مواجهة الإحباطات، والتحكم في النزوات، وتأجيل إحساسه بإشباع النفس، والقدرة على تنظيم حالته النفسية ومنع الأسى والألم من شلّ القدرة على التفكير. ينظر: جولمان، دانييل، الذكاء العاطفي، تر: ليلى الجبالي، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٠م، ص ٥٥

[٩] يونج: هو كارل غوستاف يونغ، ولد في تموز من عام ١٨٧٥ م في بلدة (كسويل) من مقاطعة ثورغاو بسويسرا، درس في مدينة بازل ،إذ تخرّج طبيباً. ينظر: ك. غ. يونغ، التحليل النفسي، تر: نهاد خياطة، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، ١٩٩٧م، ص ١٥

حقيقتها أبداً؛ كما أن كشفها عن حقيقة هويتها نديّة غير ظاهرة فلا متفضّل عليها كريمة ابنة ملك كريم، فهي ليست بأقل مكانة ولا نسباً من ابن التاجر بل قد تكون أعز وفي مكانة أرفع.

٣ . قمر البغدادية : [١٠]

كانت قمر البغدادية جارية إبراهيم بن حجاج اللخمي صَاحب إشبيلية، إلا أنها لم تكن كأيّما جارية؛ فهي من أهل الفصاحة والبيان، والمعرفة بصوغ الألحان، فجمعت أدباً وظرفاً، ورواية وحفظاً، وفهماً بارعاً، وذكاءً لامعاً، وكانت تقول الشعر بفضل أدبها(البلنسي، ١٩٩٥، ص ٢٤٥).

كل هذه المميزات جعلت لها مكانة عليا بين جواري قصر سيدها إبراهيم، فكان لها ما لم يكن لغيرها، فهي زهرة الجواري في إشبيلية؛ مما أورث قلوب الأخريات الحسد والغلّ والكراهية، فكنّ يتهامسن إذا مرت بهن، ويتغامزن إذا غنت ويستصغرنها(جمعة، ٢٠٠١، ٣٥٧) ، فجاءت أبياتها درساً عظيماً في الأخلاق الاجتماعية، اعتزازاً بنفسها ومكانتها من كل النواحي، قالت (المراكشي، ١٩٨٣، ص ١٢٨):

قالوا أتت قمرٌ في زيّ أطمار [١١] من بعد ما هتكت قلباً بأشفارِ
تَمشي على وجلٍ تغدو على سبلٍ تشقّ أمصار أرضٍ بعد أمصارِ
لا حرّة هي من أحرارِ موضعها ولا لها غير ترسيلٍ وأشعارِ
لَو يعقلونَ لما عابوا غَريبتهم لله من أمة تزري بأحرارِ
ما لِابن آدم فخرٌ غير همّتهِ بعد الديانة والإخلاص للباري
دَعني منَ الجهلِ لا أرضى بصاحبهِ لا يخلص الجهل من سبٍّ ومن عارِ
لَو لم تَكن جنّةٌ إلّا لجاهلةٍ رضيت من حكم ربّ الناس بالنار [١٢]

فها هي قمر البغدادية على الرغم مما يقال عنها من همز ولمز إلا أنها وضعت أبياتها درساً بين يدي كل من تسوّل له نفسه أن يذكرها بسوء، فهنّ يعبنَ عليها كونها مغتربة أتت من بغداد للأندلس، وكونها جارية مملوكة لا تملك من أمرها شيئا، وشاعرة مغنية، فيأتي الرد في البيتين الرابع والخامس من بعد بسط لما سمعته وآذاها، فصدّرت ردها بكلمة (لو يعقلون)؛ لتنفي عنهن العقل وتثبته لنفسها، كذلك في قولها : " ما لابن آدم فخر غير همته"، فهي تؤكد أن همتها عالية لا ركون فيها وبهذا هي تفخر وهذا استقته من إيمانها بالله، ثم تعود مرة أخرى، لتؤكد جهل هؤلاء النسوة فتقول :

---

[١٠] قمر البغدادية: من النساء اللواتي دخلن الأندلس من المشرق، وكانت من أهل الفصاحة والبيان ومعرفة بصوغ الألحان، وجمعت أدباً وظرفاً وروايةً وحفظاً، ينظر: المقرّي، التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٤، نفسه، ص ١٣٧

[١١] أطمار: ثوب بالٍ ، انظر : لسان العرب، مادة (طمر)

[١٢] البحر البسيط

دَعني منَ الجهلِ لا أرضى بصاحبهِ لا يخلص الجهل من سبٍّ ومن عارِ

وقمر هنا ترفض الجاهل أياً كانت مكانته فترفضه عموماً؛ فهي في علو وفي مكانة رفيعة لا تسب ولا تسخر ولا تعيب، وليس هذا فحسب بل هي تختم أبياتها بتصريح بأن من أثار حفيظتها هي (جاهلة) ومثلها كثير وتختصر سموها عنهن بقولها :

لَو لم تَكن جـنّةٌ إلّا لـجاهلةٍ رضيت من حكم ربّ الناس بالنار

فهي متمسكة بعلمها ومركزها الذي هي عليه حتى أنها ستسكن النار لو كانت الجنة حكراً على الجاهلات، وفي ذلك كناية عن الاعتداد بالنفس والترفع عن سفائف الأمور وأهلها. من أين لقمر البغدادية هذا الزهوّ بالنفس؟ وكيف استطاعت التغلب على ألم الغربة والبعد عن الوطن والأهل والأحبة؟ العوامل المحيطة بقمر كلها مثبطة، فالغربة مثلاً سبب عظيم للحزن والانكسار بخاصة لدى المرأة، وكذلك شعور المرء بأنه سلعة تعرض وتباع وتشترى، إلا أننا أمام شخصية اختلف الأمر لديها فنراها متصالحةً تماماً مع كل هذه الظروف، وتلمس في أبياتها التقبل لوضعها فتقول في أبياتها السابقة (غريبتهم)؛ فهي تعلم تماماً بأنهم لن يتقبلوها بسهولة فتقرر هي ذلك؛ لتقطع الطريق على من يفكر أن يؤذيها من هذا الباب، ولعل النقلة الأعظم في حياتها تمثلت في سيدها إبراهيم اللخمي الذي قدّم لها الأمان والاحتواء فضلا عن الإعجاب وإعلاء الشأن كل ذلك يشكل دعماً نفسياً عظيماً لفتاة تركت بلادها وأهلها، وركبت البحار، وخاضت غمارها حتى وصلت الأندلس، ومن العوامل التي استغلتها لتعزيز ثقتها بنفسها هو جمالها الأخاذ كما جاء في كتاب الصلة : " لَا تداني أدبا وظرفا ورواية وحفظا مع فهم بارع وجمال" (البلنسي، ١٩٩٥، ص ٢٤٥)، فالمرأة الجميلة في أي مجتمع مرغوبة ولها قدرها أياً كانت وظيفتها، فكيف بمجتمع كالمجتمع الأندلسي؟.

ومما قالوه في الجواري وما يصلح كل نوع منهن: الخادم البربرية للّذة، والرومية لحيطة المال والخزانة، والتركية لإنجاب الولد، والزنجية للرضاع، والمكيّة للغناء، والمدنية للشكل، والعراقية للطرب والإنكسار (السقطي، ١٩٣١، ص ٤٩). وبالطبع هذا لا يعني بأن من تنجب الولد لا تتمتع بالجمال مثلاً، ولكن إن دل هذا التقسيم على شيء دل على أن المرأة الجارية كانت واقعاً اجتماعياً مقبولاً في الحياة الأندلسية آنذاك، وله تبعات اجتماعية ونفسية في نفس المرأة. وفي هذا نرى غوسيه غومث يعيب على العنصر العربي استهتاره بالمرأة في كلتا صورتيها حرة كانت أو جارية، في أنه لا يهتم بالجانب النفسي من حياتها (الشافعي،٢٠٠٦، ص ٥٠)، أوافقه الرأي في ما ذهب إليه ففي التقسيم نفسه وتداول هذا الحديث في الأوساط آنذاك هو امتهان لها وحكر لها في جانب من دون الجوانب الأخرى التي تنتقص من كينونتها وفطرتها، كانت حرّة أو جارية ففي ذلك رسالة مبطنة للحرّة بأنها

هي أيضاً لا تكفي. وفي قصة قمر البغدادية نرى عكس ما تقدمنا بذكره؛ فسيدها إبراهيم من الرجال الذين قدّروها حق قدرها وأعلوا من شأنها، وهذا واضح من أبياتها التي تدل على المستوى الرفيع في التفكير الذي وصلت له.

وبالعودة إلى الأبيات نجد أن الأنا الأعلى[١٣] لدى الشاعرة واضح جداً، فهي تقدّم درساً للأخريات وهذا الدرس ما هو إلا نتاج تجربة حياتية وعلمية، فتعطي عبر أبياتها قيماً أخلاقية تشكّل درعاً للشخصية الإنسانية، مقررة بأن الإنسان أعظم ما يفخر به هو كونه مسلماً هذا أولاً، ومن ثم الإيمان بالله في صورة ترضيه، وأخيراً العمل الذي يسوقه إلى الجنة، عدا ذلك ما هو إلا بهارج دنيوية تزول مع مرور الوقت .

٤ . حفصة بنت الحاج الركونية :[١٤]

هي الأديبة الشاعرة المعروفة بحسبها ونسبها ومالها وجمالها (نفح الطيب، ١٩٩٧، ص ١٧١) ، عاشت قصة حب مع الوزير(نفح الطيب، ١٩٩٧، ص ١٧٣) ابن سعيد[١٥]، فعلمت أنه تولّع بحب جارية سوداء وأنه انفرد بها أياماً بظاهر غرناطة، فجاءت هذه الأبيات اعتداداً بالنفس والرفعة تقول (الحموي، ١٩٩٣، ص ١١٨٤):

يا أظرف الناس قبل حالٍ	أوقعه وسطهُ القدرْ
عشقت سوداء مثل ليلٍ	بدائعُ الحُسن قد سترْ
لا يظهر البِشرُ في دُجاها	كلا، ولا يُبصر الخفرْ
باللهِ قلْ لي وأنتَ أدرى	بكل من هَام في الصورْ
من الذي حبَّ قبلُ روضاً	لا نور فيها ولا زهرْ[١٦]؟!

ففي قصيدتها هذه زهوٌ بالنفس واضح، ومن شدة اعتدادها بذاتها لا تعرض حتى لمقارنة بينها وبين الجارية، بل تحط من قدرها لترفع من شأن نفسها، كما تريد أن توصل لأبي جعفر أكثر من رسالة في هذه الأبيات، نجدها في البيت الأول تقرر له حقيقة بأنه كان شخصاً معروفاً بذكائه ودهائه (أظرف الناس) إلى أن ساقته الأقدار ووقع في حب الجارية السمراء، فهي تذمّ الجارية وتشبهها بالليل؛ لشدة اسمرارها والحسن والجمال لا يظهران فيها

---

[١٣] الأنا الأعلى: هو الجزء الأخير الذي ينمو في الشخصية وهو الممثل الداخلي للقيم التقليدية للمجتمع، فهو الدرع الأخلاقي للشخصية، ووظائفه الأساسية هي: ١ـ كفّ دفعات الهو. ٢ـ إقناع الأنا بإحلال الأهداف الأخلاقية محل الأهداف الواقعية. ٣ـ العمل على بلوغ الكمال . ينظر: ك. هول، ج. لندزى، نظريات الشخصية، تر: فرج أحمد وآخرون، دار الفكر العربي، مصر، ١٩٩٠م، ص٥٣ـ٥٤ـ٥٥

[١٤] حفصة بنت الحاج الركونية : شاعرة، عرفت في عصرها بالتفوق في الأدب والظرف والحسن وسرعة الخاطر بالشعر، ولدت وعاشت في غرناطة و توفيت في مراكش، لقّبها ابن بشكوال بأستاذه وقتها، وكانت تعلم النساء في دار المنصور. انظر: الأعلام، نفسه، ج٢، ص ٢٦٤

[١٥] أبو جعفر: هو أبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن سعيد العَنسيْ، أحب حفصة شاعرة الأندلس، انظر : نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، ج٥، ص٣١١

[١٦] البحر البسيط

أبداً فكأن تفاصيلها ضاعت في لونها الحالك، فاللون داكن ذكرته غير مرة للتأكيد (سوداء، ليل، دجاها)، وفي قولها :

باللهِ قلْ لي وأنتَ أدرى بكل من هَام في الصورْ

تستحلفه بالله حتى يخبرها وهو يعلم جيداً بأن حفصة مطلب الكثيرين ومطمعهم؛ لتقرر حقيقة بذلك وهي عظيم الخطأ الذي وقع فيه ابن سعيد وعظيم شأنها، وفي ختام أبياتها تقرر من وجهة نظرها أنه لم يحدث أن أحب أحدهم روضاً لا زهر فيه ولا خضر ولا روح؛ لتؤكد بأنها هي الروض الغنّاء الذي يستهام به ويُرغب فيه وهي النور والسرور لقلب من أحبها.

لا يختلف اثنان على أن الأبيات تقف خلفها الغيرة الشديدة دافعاً؛ فليس من السهل على سيدة كحفصة ملكت المال والجمال والمكانة المرموقة أن تقبل أن تُترك من من هامت به حباً، ومما زاد الطين بلة أنه مال لجارية لا مجال للمقارنة بينهما .

٥ . ولّادة بنت المستكفي بالله:[١٧]

يمكننا القول إن ولّادة هي أيقونة الاعتداد بالنفس بالنسبة لنساء الأندلس، وفي هذا لها بيتان رسمتهما على طرفيّ ثوبها، تقول (التلمساني، ١٩٩٧، ص ٢٠٥) :

أنا واللهِ أصلحُ للمعالي وأمشي مِشيتي وأتيهُ تيهاً

أمكِّنُ عاشقي من صَحْنِ خدي وأُعطي قبلتي من يشتهيها[١٨]

من الواضح في أبياتها تأكيدها لذاتها، وفرضها لنفسها فنراها تستفتح الأبيات بضمير المتكلم (أنا)؛ لتهيأ السامع تهيئة كاملة بأن الحديث سيدور حولها .ولا يتوقف الأمر هنا بل تؤكد ما بعد الضمير بالقسم (واللهِ)، وفي المعالي إرهاصات عدة أهمها: (المجد، الرفعة، المكانة، الجاه) ومنها نعود لنشأة ولّادة؛ لنعرف سر هذا الزهو والإعجاب بالنفس. فوالدها لم يمكث في الخلافة طويلاً وكان مما عرف عنه أنه في غاية السخف، وركاكة العقل، وسوء التدبير، وكان هناك رجل يعرف بأحمد بن خالد هو المدبّر لأمره والمدير لدولته، ولم يزل كذلك حتى خلع وقتل وزيره المذكور، ومن ثم نفي إلى قرية اسمها (شمنت) بالقرب من مدينة سالم ومعه أحد قادته الذي سمّه وأرداه قتيلاً، فما كان منه إلا أن غسّله وكفّنه وصلّى عليه (المراكشي، ١٩٤٩، ص ٥٦).

كانت حياتها عند الصغر حياة الأميرات المدللات، وكانت هي وحيدة والدها الذي عكف على تأديبها وتعليمها وكأنه أعدّها لحياة جديدة من دون أن يدري. فقد أولى الأندلسيون تربية أولادهم غاية كبيرة، وإن كان ذلك الاهتمام قد ظهر لدى الجميع، فمن باب

---

[١٧] ولّادة بنت المستكفي بالله: كانت واحدة زمانها يشار إليها في أوانها، حسنة الحوار، مشكورة المذاكرة، أديبة جزلة القول حسنة الشعر، ومما عرف عنها أنها كانت تناضل الشعراء وتجادل الأدباء، طال عمرها ولم تتزوج أبداً.انظر : الدر المنثور في طبقات ربات الخدور، السابق، ص ٥٤٥

[١٨] البحر الوافر

أولى أن يكون للخاصة وأهل الوجاهة(عيسى، ١٩٨٢، ص ٤٢٩)، والبنات كنَّ يتلقين العلم على أيدي بعض المعلمين من الرجال والنساء بشروط معينة (عيسى، ١٩٨٢، ص ٣٦٨).

فالعصر الذي عاشت فيه ولّادة إذن عرف بعلو الحركة العلمية ووفرة إنتاجها، على الرغم من سوء الأحوال السياسية والاجتماعية(حجي، ١٩٨١، ص ٤١٢)، يقول عنها صاحب الذخيرة : " وكانت في نساء أهل زمانها، واحدة أقرانها، حضور شاهد، وحرارة أوابد، وحسن منظر ومخبر، وحلاوة مورد ومصدر"(الشنتيري، ١٩٣٩، ص ٣٧٩).

كان لها جارية سوداء، موهوبة في الغناء، تبين لولّادة أن ابن زيدون له ميل إلى هذه الجارية فكتبت إليه (الصفدي، ٢٠٠٠، ص ٢٦٢):

لَو كنتَ تُنصِفُ فِي الْهوى مَا بَيْنَنَا لم تهوَ جاريتي وَلم تتخيَّرِ

وتركتَ غصناً مُثمِراً بجماله وجَنَحتَ للغصن الَّذِي لم يُثمِر

وَلَقَد علِمتَ بأنني بدرُ السما لَكِن ولِعتَ لشقوتي بالمشتري[١٩]

فها هي توجه رسالتها المليئة بالحنق والغيرة لابن زيدون متخيّرة له أقسى الألفاظ، واصفة إياه بالظالم؛ لأن قلبه الذي تهواه مال لغيرها وفضّل عليها جاريتها، وهو بذلك ترك بستاناً مثمراً وأقبل على غصن جاف لا خير فيه ولا رونق، ولا تكتفي بهذا التشبيه بل تعزز من نفسها وهي تقول مستعملة لام التوكيد وقد وأن؛ لتؤكد بأنها البدر وتلك الجارية هي المشتري، وأيّما امرأة لا تقبل أن يميل قلب من تهوى لقلبٍ سوى قلبها، وهذه الأميرة بالذات لن يمر هذا الموقف لديها بسهولة فما عاشته من دلال عند الصغر، وفقدٍ عند الكبر يؤدي دوراً مهماً في تشكيل مشاعرها التي تدير دفة عاطفتها في كل مناحي حياتها ولاسيما الحب. وتظهر لنا شخصية ولّادة الغيورة المحبّة للتملّك، والمرأة تكون بهذه المشاعر قبل أن تحب ويعدّ هذا موقفها إزاء الحياة والناس، فتقييمها لذاتها يعتمد مدى حب وقبول الناس لها، فلا ترى نفسها على القمة إلا إذا أقبل الناس عليها(صادق، الغيرة والخيانة، ١٩٩٣، ص ٢٢).

وهذه الأبيات غيض من فيض من التجريح والعتاب الذي وجهته ولّادة لابن زيدون، فهي وضعت نفسها على قمة الأشياء دوماً؛ لتعوض نقصاً عانت منه في مرحلة معينة من مراحل حياتها. والمرأة الغيورة غير عادلة ولا منصفة ولا تقدّر مشاعر الآخرين، وهي في هذه الحالة إما أنها تعرضت لحرمان وقت الطفولة أو كان هناك تلبية لكل ما تريد من محيطها، والنتيجة في كلا الحالتين واحدة وهو الشعور الدائم بالخوف من الفقد، ومن هنا يتولد حب التملك وحب السيطرة؛ لتحقيق الشعور بالأمان، والعقل الباطن يغذي هذا المعنى على الدوام تحت شعار: إذا امتلكتك استطعت السيطرة عليك وإذا سيطرت عليك لن تعطي الحب لأحد غيري(صادق، ١٩٩٣، ص ٢٦).

[١٩] البحر الكامل

وذكرها ابن بسّام قائلاً : وكان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار المصر، وفناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر، يعشو أهل الأدب إلى ضوء غرتها، ويتهالك أفراد الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها، إلى سهولة حجابها(الشنتيري، ١٩٣٩، ص ٤٢٩).

فانظر لها معتدّة بموهبتها في الشعر والنقد والمساجلة، وانظر لها معتدّة بجمالها وبهائها وخفة ظلها، وسعيها أن تكون محطّ الأنظار وسيدة النساء والرجال، ومطلب الذليل والفارس المغوار، لن أقول لن تقبل بمنافسة في قلب ابن زيدون بل لن تبقَ معه ولن تسمح له أن يضعها في موقف كهذا، وفعلاً حلّت القطيعة والبعد والفراق بينهما على الرغم من شدة الحب الذي جمعهما، فجاءت نفسها أولولية لا الحب تقدّم ولا نفسها تأخّرت.

٦. عائشة بنت أحمد القرطبية[٢٠] :

عائشة الشاعرة الفصيحة ذات المكانة المرموقة بين أهل زمانها، و كأي امرأة تخطب وتطلب للزواج ولكن عندما خطبها بعض الشعراء ممن لم ترضَ به، قالت(فوّاز، ١٤١٢، ص ٢٩٢):

أنا لبوةٌ لَكنَّني لا أَرْتَضِي نَفسي مَناخاً طولَ دهرِي مِن أحدِ

ولَو أَنَّنِي أَختار ذلك لم أجبْ كلباً ولا أَغلقتُ سَمعي عن أسدِ[٢١]

فتعاملت عائشة القرطبية مع الزواج بصورة مختلفة فنجد اعتدادها مخالف حتى للسنن الكونية فيما يتعلق بالحياة الطبيعية بين أي رجل وامرأة، فهي تعلق على مسألة خطبتها التي تكررت وتكرر رفضها، فترى بأنها أغلى من أن تكون مطية أحد . وفي هذا إشارة للعلاقة الطبيعية بين الأزواج . وأظنه فكر شائع بين كثير من النساء حتى في وقتنا الحالي، فترى بأن الزواج يمسّ كينونتها والرجل ما هو إلا تهديد لوجودها وحريتها، وكأنّ عائشة كانت مصابة بفوبيا الذكور[٢٢]، دليل ذلك أنها رفضت الزواج حتى ماتت عذراء من دون زواج (فوّاز، ١٢١٣، ص ٢٩٢) . وكون الزواج مؤسسة تقوم على قوامة الرجل وإطاعته، وجدت في أن تكون حرّة دونما قيد من هذا الرجل الذي لا يمكن أن يكون شريكاً من وجهة نظرها فهي تقول : " لا أرتضي نفسي مناخاً" فالحياة مع رجل ما هي إلا امتهان للمرأة وجسدها، وفي قولها : " لم أجب كلباً ولا أغلقت سمعي عن أسد" اعتراف بأن من تودد لها وخطبها

[٢٠] عائشة بنت أحمد القرطبية ت ٤٠٠هـ : ذكرها ابن حبان بقوله: لم يكن في زمانها من حرائر الأندلس من يعادلها علماً وفهماً، وأدباً وفصاحةً وشعراً وكانت تمدح ملوك الأندلس وتخاطبهم بما يعرض لها من حاجة، وكانت حسنة الخط تكتب المصاحف. ينظر : الدر المنثور في ربّات الخدور، نفسه، ص ٢٩٢.

[٢١] البحر الكامل

[٢٢] فوبيا الذكور: الفوبيا كلمة يونانية تعني ـ الخوف ـ وتعبر عن مجموعة من حالات الرعب، والقلق، والذعر المرتبط بالأيام والمواقف والتجارب، وهنا مرتبط بالذكور ومواقف معينة لا تتشابه لكن نتيجتها واحدة وهي الخوف منهم. ينظر : بيل، آرثر، الفوبيا، تر: عبد الحكم الخزامى، الدار الأكاديمية للعلوم، ط١، القاهرة، ٢٠١١م، ص ١٣

منهم من كان وضيعاً (كلباً) ومن كان سيداً في قومه (أسد)، ولكنها تنظر للرجل بغض النظر عن مكانته هو رجل وليس في وجوده كمال لها بل على العكس .

ثانياً : الجرأة والصراحة :

أ. الغزل بالرجال :

تتمثل الجرأة والصراحة في شخصية المرأة الأندلسية، كما يظهر في شعرها الغزلي للرجال والهجاء الفاحش. فالغزل يعدّ غرضاً قديماً من أغراض الشعر العربي، فكانت الطبيعة الخلّابة والحياة المترفة من العوامل التي شجعت الشواعر الأندلسيات على الغزل، وقد تخطّت الشاعرة الأندلسية حدود الغزل العذري للغزل الصريح بالرجال، وهي بذلك خطّت خطّاً جديداً وبلغت الجرأة لديها مبلغاً كبيراً، تقرأ الأبيات فتخالها لأحد الشعراء الرجال، فما عهد الناس هذا الابتذال في المعاني الشعرية لدى الشواعر.

١. حسانة التميمية :[٢٣]

دار حوار بينها وبين أحد الرجال فسألها عمّا كانت متزوجة أم لا؟ فأطرقت ثم أجابته شعراً (ابن طيفور، ١٩٠٨، ص ٥٨) :

كُنّا كغصنينِ في ساقٍ غِذاؤهُما ... مَاءُ الجداولِ في رَوضات جَنّاتِ

فاجتثّ خيرَهُما مِن أصلِ صاحبِهِ ... دهْرٌ يكِرُّ بفرحاتٍ وترحاتِ

وكانَ عاهدني إن خانني زمنٌ ... أن لا يضاجعَ أُنثى بعد مثواتي

وكنتُ عاهَدتهُ أيضاً فعاجلهُ ... ريبُ المنونِ قريباً مُذ سنياتِ

كُنّا كغصنينِ في أصلٍ غِذاؤهُما ... مَاءُ الجداولِ في رَوضات جَنّاتِ[٢٤]

جُبلت المرأة على الحياء، فليس من السهل أن تتحدث في أمور الحب وما حدث بينها وبين زوجها أو من أحبت، إلا أننا نرى ذلك جلياً لدى الكثير من الشواعر الأندلسيات من بينهن حسّانة، فالسؤال الذي وجّه إليها من رجل لا يظهر التحرّج فيه من قبل الطرفين، فإن كان سهلاً أن يسأل الرجل أسئلةً كهذه ويخوض في أحاديثٍ جريئة، فمما عرف عن المرأة خجلها واستحياؤها فيما يتعلق بالزواج والحب، إلا أنه من الظواهر الاجتماعية التي كانت جلية في الأوساط الأندلسية هو الاختلاط بخاصة بين الرجال والنساء مما يبين سهولة التخاطب والحديث بين الجنسين.

---

[٢٣] حسّانة التميمية بنت أبي الحسين الشاعر، تأدبت وتعلمت الشعر، توفي عنها والدها وهي ما تزال بكراً، ينظر : المقرّي، أحمد بن محمد التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٥، تح: إحسان عباس، دار صادر، ط١، مصر، ١٩٩٧م، ص ١٦٧

[٢٤] البحر البسيط

٢ . حفصة بنت الحاج الركونية :

ومن أشعار الغزل الصريحة ما جاء على لسان حفصة في حبيبها وصاحبها الوزير أبي جعفر بن سعيد[٢٥] الذي كان يحبها ويتغزل فيها هو الآخر(الأندلسي، ١٩٥٥، ص ١٣٩):

وَلَوْ لَمْ تَكُنْ نَجْماً لما كَانَ ناظري وَقد غِبْتَ عَنْهُ مُظْلِماً بَعْدَ نُورِهِ

سَلامٌ عَلَى تِلْكَ المَحَاسِنِ مِنْ شَجٍ تَنَاءَتْ بِنُعْمَاهُ وَطِيبِ سروره[٢٦]

وقولها فيه أيضاً:

سَلوا البارقَ الخفاق وَاللَّيْلُ سَاكنٌ أَظَلَّ بِأَحْبَابِي يُذَكِّرُنِي وَهْنَا

لَعَمْرِي لَقَدْ أَهْدَى لِقَلْبِيَ خفقه وأمطر عَنْ مُنْهَلّ عَارِضِهِ الجَفْنَا[٢٧]

ففي هذه الأبيات نجدها تعلن بين طيات شعرها عن قصة حبٍّ تعيشها وتستلذ بها غير آبهةٍ بأحد ففي البيت الأول حين قالت :

لَو لَمْ تَكُنْ نَجْماً لمَا كَانَ نَاظِرِي وقدْ غبتَ عنهُ مظْلماً بَعْد نُورِهِ

فحياتها استحالت لظلام دامس غائب الملامح بغيابه، وفي بيتيها الآخرين عندما تقول: لعمري لقد أهدى لقلبي خفقةً، فكأنما هذا الحبيب والحب الذي منحها إياه هو الحياة ذاتها، وتظهر في أبياتها شدة حبها وتعلقها بأبي جعفر بن سعيد وقوة تأثيره عليها، ورغبتها الجامحة أن تكون بقربه ،وأن تحظى باهتمامه. فالطرف المتعلق دائماً يحتاج للقرب والاهتمام، ويتوقع دائماً الكثير من المحبوب(كروم، ٢٠٢٠، ص ١٦). وقالت غزلاً (المقّري، ١٩٩٧، ص ١٧٣):

ثَنائي على تلكَ الثنايا لأنَّني أقولُ عَلى علمٍ وأنطِقُ عنْ خبرِ

وأنصِفُها لا أكذِبُ اللهَ أنْني رَشَفتُ بِها ريقاً ألذُّ من الخمْرِ[٢٨]

في هذين البيتين مجاهرة صريحة بأنها اختلت بمن تحب، فتتغزل بأريحية بثناياه، كما كان يفعل الشعراء إذا ما تغزّلوا بحبيباتهم، فقد جرت العادة أن يتغزل الرجل بالمرأة إلا أننا هنا أمام عاشقةٍ ولْهى، وفي إذاعتها لهذا الحب أكثر من مغزى أولها :أن توصل رسالة لابن عبد المؤمن بأنها تحب الوزير أبا جعفر ولا سبيل لقلبها أبداً، وكذلك تبياناً لمفهوم الحرية التي حصلت عليها المرأة في العصر الأندلسي، فأمست تفعل ما تريد فلا يكفي الشاعرة

[٢٥] أبو جعفر بن سعيد: هو أبو جعفر أحمد بن عبدالملك بن سعيد العنسي، قال عنه صاحب (المغرب) أبو الحسن بن سعيد: لا أعلم في بني سعيد أشعر منه، بل لا أعلم في بلده، وعشق حفصة شاعرة الأندلس. ينظر: نفح الطيب، ج٥، نفسه، ص ٣١١

[٢٦] البحر الطويل

[٢٧] البحر الطويل

[٢٨] البحر الطويل

العاشقة الحب والشعر، بل تشدُّ رحالها حتى تصل لباب هذا المعشوق، قالت حفصة (الأندلسي، ١٩٥٥، ص ١٦٦) :

أَزُورُكَ أَمْ تَزُورُ فَإِنَّ قَلْبِي إِلَى مَا مِلْتُمْ أَبَدَاً يَمِيلُ
وَقَدْ أُمِّنْتَ أَنْ تَظْمَى وَتَضْحَى إِذَا وَافَى إِلَيَّ بِكَ القُبُولُ
فَثَغْرِي مَوْرِدٌ عَذْبٌ زُلالٌ وَفَرْعُ ذَوَائِبِي ظِلٌّ ظَلِيلُ
فَعَجِّلْ بِالجَوَابِ فَمَا جَمِيلٌ أَنَاتُكَ عَنْ بُثَيْنَةَ يَا جَمِيلُ[٢٩]

ففي البيت الأول تبين استعدادها الكامل لهذا الحب وما يترتب عليه دونما أية ضوابط (أزورك أم تزور)، فهي تلغي ما ساد في المجتمع العربي فيما يتعلق بالمرأة والرجل؛ فالمرأة هي التي تُطلب ويُسعى إليها، فالحب في دستور حفصة يلغي كل تلك المفاهيم فلا ضير أن تزور حبيبها فهي تريده وترغب به بشدة، تقول :

فَثَغْرِي مَوْرِدٌ عَذْبٌ زُلالٌ وَفَرْعُ ذَوَائِبِي ظِلٌّ ظَلِيلُ

تقدم نفسها له راضية دونما خجل أو تردد فلا نراها تلمّح، بل تقولها له بصراحة بأن ثغرها مورد عذب زلال وفرعها الممشوق هو مستراحه، إلا أنه في فعل الأمر: (فعجّل) رجاء وتوسل بأن يسرع الرد ويجيبها بالقبول كيف لا؟ وهي بثينة وهو جميلها، وكأن الوزير شغلته المشاغل عن هذه المحبوبة المندفعة. لابد من الإشارة إلى أن الرجل يفكّر بعقله، ويحب بعقله ،ويتصرف بعقله على عكس المرأة؛ فهي أكثر انسياقاً وراء عاطفتها من الرجل؛ لأن مخزونها العاطفي جيّاش يتلاءم مع طبيعتها، أما الرجل فتُضمر عاطفته كلما امتدَّ به العمر(المشرف، ٢٠١٢، ص ١٧) ، ومما هو واضح تأني أبو جعفر في ما يتعلق باللقاء؛ وقد يكون ذلك لكثرة مشاغله وتعددها، فحفصة كانت مطلب الكثيرين على رأسهم أبو سعيد بن عبد المؤمن ملك غرناطة.[٣٠]

ولا يتوقف الأمر في طلب الإذن بالزيارة لدى حفصة بل تزوره فعلاً وتقف ببابه حاملةً معها صك الحب فتدفع بهذه الرسالة الشعرية المليئة بالإثارة والتشويق والتحريض، قالت(نفح الطيب، ١٩٤٩، ص ١٧٩) :

زائرٌ قْد أَتى بجيدِ الغزالِ مُطلعٌ تحتَ جُنحِهِ للهلالِ

---

[٢٩] البحر الوافر

[٣٠] طلب أبو سعيد كاتباً يتّخذه وزيراً، فوصفوا له أبو جعفر بن سعيد إلا أن الأخير أبى ولكنه في النهاية رضي بالوزارة التي كان يهرب من أن يكون حبيساً لها أو لغيرها؛ فهو محب للحرية، وفي يوم من الأيام أنشد بين أصحابه:

فقل لحريصٍ أن يراني مــقيّداً بخدمته لا يجُعلُ البازُ في القفصِ
وما كنتُ إلاَّ طوعَ نفسي فهلْ أرى مُطيعاً لِمنْ عنْ شَأوِ فخري قد نَقَص

وكان من أصحابه من حفظ البيتين ووشى به عند ابن عبدالمؤمن، فعزله أسوأ عزل، ثم بلغه أنه قال لحفصة : ما تحبين في ذلك الأسود وأنا أقدر أن أشتري لك من سوق العبيد عشرة خيراً منه، وكان لونه يميل للسواد قليلاً فأسرّها في نفسه وجعل منها سبباً و مسوغا لقتله. ينظر : نفح الطيب، ج٥، ص ٣١٣

بلحاظٍ من سحرِ بابلَ صِيغت ورضابٍ يفوقُ بنتَ الدوالي[٣١]
يفضحُ الوردُ ما حوى منهُ خدٍ وَكذا الثغرُ فاضحُ للآلـي
ما ترى في دخوله بعد إذنٍ أو تُراهُ لعارضٍ في انفصال

فمن جرأة التصريح بالحب وإعلانه لجرأة الإشهار بطبيعة العلاقة بينها وبين الوزير وما يحدث بينهما إذا صار اللقاء، حتى نراها واقفة أمام بابه في جرأة محب عجيبة غريبة على ذاك المجتمع، بيد أن هذه الجرأة كان لها دوافع عدة أولها : المكانة الثقافية والاجتماعية التي وصلت إليها حفصة؛ بفضل علمها ونبوغها وهذا ما اتضح لنا من الأخبار الواردة عنها. فابن دحية أخبر أنها من أشراف غرناطة، شعرها رخيم، ونظمها رقيق(نفح الطيب، ١٩٤٩، ص ٣٠٩)؛ فالنجاح يؤهل المرأة لمكانة مرموقة ويزيد ثقتها بنفسها، وحفصة مما زاد ثقتها بنفسها ثقتها من حب الوزير أبي سعيد وأنه يريدها كما هي تريده، أعطاها دافعاً قوياً بأن ترغب أن تكون معه، فتأتيه حتى داره قائلة (هيت لك). وهي امرأة ذات عاطفة ذكية محبة مندفعة يوماً متمنعة في يوم آخر فمما ذكر عنهما أن أبو جعفر أثاره الشوق فطلب مقابلتها فماطلته شهرين، فكتب إليها (المقّري، ١٩٩٧، ص ١٧٣) :

يا من أُجانبُ ذكرَ اسـ ـمهِ وحسْبي عَلامَـه
ما إن أرى الوعدَ يُقضىَ والعمرُ أخْشى انْصِرامَـه
اليومَ أرجـوكَ لا أنْ تكون لي في القيامــه
لو قدْ بَصرُتَ بحـاليَ والليلُ أرْخى ظلامــه
أنوحُ وجْداً وشـوقاً إذْ تستريحُ الحَمـَامه
صبٌّ أَطالَ هـواهُ على الحبيبِ غرامَــه
لِمن يتِيهُ علَـيهِ ولا يرُدُّ سلامــه[٣٢]

فأرسلت له جوابها في قصيدة مطلعها يقول (يوسف، ٢٠٢٠، ص ٣٨) :

يَا مدّعي في هَوَى الحسـ ـنِ والغرامِ الإمامــة[٣٣]

وقالت لمرسول أبي جعفر : لعن الله المرسِل والمرسل، فما في جميعكما خير، ولا لي برؤيتكما حاجة، فلما فتح المكتوب وقرأ ردّها عرف بأنها واعدته في بستان يسمى الكمامة (المقّري، ١٩٩٧، ص١٧٤). فنرى حفصة تسايس الوزير في الحب إلا أن الحقيقة الأكيدة أن حفصة كانت محبة وفيّة صادقة غيورة؛ فمما نسب إليها في الغزل (فوّاز، ١٣١٢، ص ١٦٨):

[٣١] البحر الخفيف
[٣٢] البحر المجتث
[٣٣] البحر المجتث

أغارُ عليكَ منْ عينِي ومنِي ومنكَ ومنْ زمَانكَ والمكانِ
ولو أنّي خبَّأتُك في عيوني إلى يومِ القيامةِ ما كَفاني

تبث في هذه الأبيات عظيم ألم الغيرة التي أتت من بعد حب وتعلق شديد، فالحب درجات والحب أيضاً جنون، فأراه ضرب من الجنون أن يغار الشخص على محبوبه من نفسه، بل هي رغبةٌ في التملّك، ففي البيت الثاني في قولها : ولو أني خبّأتك في عيوني، تعبير واضح عن الرغبة الجامحة بأن تأخذ هذا الحبيب بعيداً عن كل الناس وتنفرد به لنفسها، وهذا ما يسمى بالحب الإستحواذي؛ وهو الشقاء العاطفي في أوضح صوره، فيجد أحدهما نفسه ضمن سجن الآخر.

ما وجدناه في المصادر التي وقعت بين أيدينا خبراً يحكي عن حياة حفصة أنها عانت نقصاً في الطفولة أو الصبا حتى نسوغ تعلقها وحبها الشديد لأبي جعفر، بل مما وصلنا أن حياتها كانت ضمن أسرة مرموقة تعهدتها بالعلم والمعرفة، وفتحت أمامها الآفاق، فافترضنا أن طفولتها مرّت بسلام ودلال، وكأنّا بحفصة ذات العلم والفصاحة عندما أحبت أحبت بثقل علمها ومكانتها فأدت أمانة العلم وأمانة الوفاء للمحب، فها هو ملك غرناطة يثأثر لنفسه، ويقتل أبا جعفر، ويسربل حياة حفصة بالسواد والحداد، فبقيت على العهد حباً ووفاءً إلى أن ماتت عذراء، وإن كان هذا الحب جعل منها أسيرة لأبي جعفر، فكان عليه أشدّ ،إذ أرداه قتيلاً، فقتله عثمان بن عبدالمؤمن(نفح الطيب، ١٩٤٩، ص ٣٠٥) ؛ثأراً لكبريائه الذي مُسّ عندما أعرضت حفصة عنه راغبة في أبي جعفر فرآه غريماً له، فضلا عما وصله من أقوال الوزير عنه كما ذكرنا سالفاً.

٣ . زينب المرية:[٣٤]

قالت تشكو ابن عمها المغيرة عندما طلّقها(يوسف، ٢٠٢٠، ص ٦٦):

يا أيّها الرَّاكبُ الغادِي لِطيتهِ عَرّج أُنبِئكَ عَنْ بعضِ الذي أَجِدُ
ما عالَج الناسُ مِنْ وجدٍ تَضَمّنهم إلاَّ وَوجدي بِهم فَوقَ الذي وَجَدوا
حَسبي رِضاهُ وأَنّي في مَسرَّتِهِ وَوُدِّهِ آخِرَ الأيامِ أَجْتَهِدُ[٣٥]

بلغ الحب بزينب مبلغاً عظيماً، بعد ما دبّت الفرقة بينها وبين ابن عمها المغيرة وحدث الطلاق، فتجد في موهبتها الشعرية متنفساً تبث عن طريقه لواعج حزنها، وتستعطف كل من يمرّ بها فتقول : يا أيُّها الراكب الغادي، فلا تخص أحداً بعينه بل كل من ركب مطيته

[٣٤] زينب المرية: هي ابنة أحد مشاهير العرب ولدت بالمرية، كانت ذات حسن وجمال، وبهاء وكمال، وأدب وظرف، وتهذيب ولطف.، وفيما يتعلق بشعرها فمعانيها رقيقة، جزلة الألفاظ، لها شعر بديع جالست الأدباء، وساجلت الشعراء حتى أنها كان يشار إليها بالبنان في ذلك الوقت. ينظر : الدر المنثور في طبقات ربات الخدور، نفسه، ص ٢٢٨

[٣٥] البحر البسيط

ومضى في شغله وغدا هي تنشده قائلةً: (عرّج)، وهي ،إذ تختار (الراكب الغادي)؛ لتثبت الحياة على كل ما هو حولها وتنفيها عن نفسها، فهي مذ فراق المغيرة لها في سكون وحزن وألم، ففي (عرّج أُنبّئك) استعطاف و إثارة للشفقة، فمن شطر البيت الثاني تبدأ شكواها، فتقارن بين (وجد) الناس أجمع و(ووجدي) والوجد حب تعيس، وزينب ضحية هذا الحب، والسبب الرئيس في حزنها حرصها المبالغ فيه فهي تقول (يوسف، ٢٠٢٠، ص ٦٥):

حَسبي رِضاهُ وأَنّي في مَسرَّتِهِ وَوُدِّهِ آخِرَ الأيـامِ أجْتَهِدُ

فهي تبالغ في حبها وتبالغ في اهتمامها حتى بعد الطلاق، تضع نفسها ضمن دائرة الحب والحزن ولا تنفّك عن هذا الحبيب، على الرغم من أنه ولّى مجانباً دربها وهي لا تدّخر جهداً لاسترضائه ومحاولة مدّ حبال الوصل مرة أخرى، فحبها له أمسى مرضاً، قالت (يوسف، ٢٠٢٠، ص ٦٥):

أَلَم تَرَ أهلي يَا مُغيرُ كَأنما يَفيؤون باللوماءِ فيكَ الغنائِما

وَلو أنَّ أهلي يعلمونَ تميمةً[٣٦] من الحبِ تَشفي قلّدونِي التمائِمَا

فلا تعلق التمائم إلا إذا كان هناك شراً يحدّق بأحدهم فتأتي التميمة كعلاج وتهدئة لمن يتقلدها، وهذا الحب أمسى شراً على صاحبته. فلا تعلق التمائم إلا إذا كان هناك شرٌ يحدّق بأحدهم فتأتي التميمة كعلاج وتهدئة لمن يتقلدها، وهذا الحب أمسى شراً على صاحبته. فالتعلق هو الوجه المظلم من الحب فيعدّ بذلك علاقة سلبية؛ لأنه مبني على ضغط نفسي كالاهتمام الزائد والرغبة الدائمة في ملازمة هذا الحبيب والحرص المبالغ فيه لاسترضائه، فتكون النتيجة تنافراً بين الشخصيتين؛ لأنه غالباً ما يكون من طرف واحد وهذا لأن الطرف الآخر ليس مجبوراً(كروم، ٢٠٢٠، ص ١٧).

وزينب لا تتعلم الدرس من تجربتها حتى في أبياتها له تخبره بأنها : (حسبي رضاه)، فلا يمكن أن يأتي الطلاق نتيجة موقف واحد بل هي تراكمات عديدة، ولا يأتي دفعة واحد في كلمة (طالق)، بل يبدأ بالعقل ومن ثم الروح حتى يصبح واقعاً واقتناعاً، فعندما يشعر الإنسان بأن روحه ما عادت تستطيع الاستمرار حتى بوجود الحب يخلّص نفسه فيترجم الطلاق واقعاً، وزينب تحول حبها لوجد وحزن وشقاء؛ لأنها لم ترخِ قبضتها في الحب لتنجو، في حين أن المغيرة نجا بنفسه وأحب غيرها . إن صدق . ظنها، قالت: (القالي، ١٩٢٦، ص ٨٧):

لنا صاحبٌ لا نشتهي أن نخونهُ وأنتَ لأخرى فارعَ ذاك خليلُ

تخالُكَ تهوى غيرها فكأنّما لها فِي تظنيها عليكَ دليلُ

[٣٦] تميمة : خرزة رقطاء تنظم في السير ثم يعقد في العنق وهي التمائم. ينظر : لسان العرب، مادة (تمم)

وما ننفك عن التعلق ووساوس المحبين ففي قولها : (وأنتَ لأخرى) ومن ثم (تخالك تهوى غيرها)، وهي لم تجد دليلاً على ميله لأخرى سوى سوء ظنها، فهذا سبب آخر من الأسباب المنفّرة للأزواج وقد تكون نتيجته في أحيان كثيرة الطلاق.

ب . الهجاء الفاحش :

يأتي الهجاء على على ثلاثة أقسام هي : الهجاء الشخصي، والهجاء الأخلاقي والسياسي، أما الشخصي فيعتمد مهاجمة الأفراد، إذ يعد من أقدم أنواع الشعر الهجائي، يتأثر بالأهواء الشخصية لا عدل فيه ولا إنصاف، قريب من السباب، وأما الهجاء الأخلاقي فموضوعه المفاسد الاجتماعية ،والعادات القبيحة، والعيوب على وجه العموم، وأما الهجاء السياسي فيهاجم فيه كل ما يتعارض مع حزبه أو طائفته أو مذهبه.[٣٧] والهجاء الذي سنتناوله في هذا الجزء هو هجاء شخصي بحت كان بين الشاعرات وأقرانهن، ومن أهم الشاعرات اللواتي تصدّرن هذا الغرض :

١ . نزهون الغرناطية :[٣٨]

أدى انتشار تيار المجون إلى ظهور مناكر كثيرة في المجتمع الأندلسي، والمرأة الأندلسية تمتعت بحرية كبيرة حتى قالت شعراً بذيئاً فاحشاً من مثل: نزهون الغرناطية وولادة (عيسى، ٢٠٠٧، ص ١٧-١٨). فقد دارت معركة حامية بين المخزومي الأعمى[٣٩] أبرز شعراء الهجاء الذين عرفتهم الأندلس، ونزهون التي كانت أشعر شواعر الأندلس في غرناطة، وعن سبب هذه المهاترات بينهما أن نزهون اعترضت على معنى بيت أنشده في أحد المجالس[٤٠] ووجهت إليه كلاماً عنيفا :" إن من يجيء من حصن المدور[٤١]، وينشأ بين تيوس وبقر، من أين له معرفة بمجالس النعيم" (فوزي، ٢٠٠٧، ص ١٨٢).

---

[٣٧] عبدالجبار، عبدالله وآخرون، قصة الأدب في الحجاز، مكتبة الكليات الأزهرية، ط ١، مصر، ص ٥٣٧

[٣٨] نزهون الغرناطية : من أهل الماء الخامسة ذكرها الحجاري في المسهب ووصفها بأنها امرأة خفيفة الروح، والانطباع الزائد، وحفظ الشعر، والمعرفة بضرب الأمثال، مع جمال فائق، وحسن رائق. ينظر : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٤، نفسه، ص ٢٤٥

[٣٩] المخزومي الأعمى: هو أبو بكر المخزومي الهجّاء المشهور، أعمى شديد الشر، مسلط على الأعراض، سريع الجواب، ذكي الذهن، فطن للمعاريض، إن مدح ضعف شعره. ينظر: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج١، تح: إحسان عبّاس، دار صادر، ط١، بيروت، ١٩٩٧م، ص ١٩٠

[٤٠] ومما حكي على لسان ابنه أبي الحسن ابن سعيد قال عن أبيه بأنه قدم إلى غرناطة أيام ولاية أبي بكر ابن سعيد، الذي وجّه عبداً صغيراً ليقوده، فلمّا استقر في المجلس وشمّ روائح الندّ والعود والأزهار قال:

ما تشتهي النفس فيها حاضرٌ داني
دار السعيديّ ذي أم دار رضوان
تحدى برعدٍ لأوتــارٍ وعيدان
سقت أباريقها للندّ سحب نـدىً
يحيا به ميت أفكــارٍ وأشجان
والبرق من كلّ دنٍّ ساكبٌ مطراً
ولا سبـــيل له إلاّ بآذان
هذا النّعيم الذي كنّا نحــدّثه

قال فيها المخزومي الأعمى (السيوطي، ١٩٩٧، ٨٥):

على وجه نزهون من الحسنِ مسحةً وتحت الثيابِ العارُ أو كان باديا

قواصـدُ نزهونَ توارِكٌ غيرها ومن قصدَ البحرَ استقلَّ السوَاقيا[٤٢٤٣]

فقالت رداً عليه:

قلْ للوضيعِ مقالاً يُتلى إلى حين يحشر[٤٤]

من المدوّر أُنشئ تَ .....[٤٥] منهُ أعطر

حيثُ البداوةُ أمستْ في مَشيها تتبخْتر

بكلّ شيءٍ مدوّر لذاك أمسيتَ صبّاً

تهيمُ في كلّ أعور خلقتَ أعمى ولكنْ

فقل لعمري من أشعر جازيتُ شعراً بشعرٍ

فإنّ شعري مذكّر إن كنتُ في الخَلقِ أنثى

فردّ عليها، قال (المقّري، ١٩٤٩، ص ١٩٢-١٩٣) :

ألا قل لنزهونةٍ ما لها تجرّ من التيه أذيالها

ولو أبصرت .....[٤٧] شمّرت كما عوّدتني سربالها[٤٦]

من الجلي والواضح أن نزهون دخلت مع المخزومي في نزالٍ أدبي وهي تعرف تمام المعرفة من يكون، ولا يمكن أن يقبل الذي قالته، وردّ الصاع بصاعين، وفي ردة فعله يتضح لنا بأن نقدها كان لاذعاً وقاسياً من جهة ومن جهة أخرى لم تهن على المخزومي نفسه أن

"وكانت نزهون بنت القلاعي حاضرة فقالت: وتراك يا أستاذ قديم النعمة بمجمر ندّ وغناء وشراب، فتعجب من تأتّيه وتشبهه بنعيم الجنّة، وتقول: ما كان يعلم إلاّ بالسماع، ولا يبلغ إليه بالعيان؟ ولكن من يجيء من حصن المدوّر، وينشأ بين تيوس وبقر، من أين له معرفة بمجالس النعيم؟ فلما استوفت كلامها تنحنح الأعمى ، فقالت له: ذبحة، فقال من هذه الفاضلة؟ فقالت: عجوز مقام أمك، فقال: كذبت، ما هذا صوت عجوز، إنّما هذه نغمة قحبة محترفة تشم روائح منها على فرسخ؛ فقال له أبو بكر: يا أستاذ، هذه نزهون بنت القلاعي الشاعرة الأديبة، فقال: سمعت بها، لا أسمعها الله خيراً، ولا أراها إلاّ أيراً." ينظر : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج١، ص ١٩١-١٩٢

[٤١] اسم لمنطقة إسبانية .

[٤٢] مدح المتنبي كافوراً بقوله:

وخيلاً مدَدْنا بَين آذانِـها القَنا فبِتنَ خافاً يتبـعنَ العَوالـيا

نجاذب مِنْهَا فِي الصَّباح أَعِنَّة كَأَن على الْأَعْنَاق مِنْهَا أفاعيا

قواصدَ كَافورٍ تَوارِكَ غيرِهِ وَمن قصَدَ البحرَ استقلَّ السَّواقيا

ينظر: الوافي بالوفيات، ج ٢٤، نفسه، ص ٢٣٢

[٤٣] البحر الطويل

[٤٤] البحر المجتث

[٤٥] لفظة بذيئة

[٤٦] البحر المتقارب

[٤٧] لفظة بذيئة

تنتقده امرأة كنزهون، فنرى علواً وتكبراً من نزهون عندما عابت عليه مكانه ونشأته البسيطة، فظهر الأنا متضخماً متعالياً على المخزومي وكأن بينها وبينه عداوة. فيأتي ردّه ذكياً؛ فلا أصعب على المرأة من انتقاد جمالها حتى وإن كانت ذات حسن وبهاء، فيقول :

على وجه نزهون من الحسنِ مسحةً وتحت الثيابِ العارُ أو كان باديا

فيعيب الوجه ومن ثم يتجه بشكل تدريجي لنقد أعمق، (تحت الثياب) ولا يكتفي بذلك بل يأتي بيت المتنبي تضميناً فيقول: ومن قصد البحر استقلَّ السواقيا، وفيها تحقير وسبٌّ غير صريح إلا أنه مبطّن فكأن نزهون محطة عابرة يقف بها المارون؛ ليصلوا لغاياتهم العظمى من النساء ذوات المكانة، فيريد أن يقول بإنها من عامة النساء اللواتي لا قيمة لهن ولا وزن وغيرها أفضل وأعلى شأناً.

وفي ردها عليه تصدّر بيتها الشعري : قل للوضيع مقالاً، وأرى بأن كليهما وضيع في ردّه ومقاله، فتنعته بما هو فيها، وهي كالطفل الذي عرف عن موضع يستفز الآخرين عن طريق فنجدها تضع ردها في الشعر فتقول: من المدوّر أنشئت، فهي تعيب مكانه مرة أخرى بألفاظ لا تليق بامرأة شاعرة مثلها، وبالوقوف على معاني الأبيات تجدها مندفعة مُستفزَّة، فكل الأفكار التي تطرّقت لها لا شأن لصاحبها فيها ولم يخترها بمعنى أصح، فكونه عاش في المدوّر وكان بدوياً هذا قدره فكيف له أن يفرَّ من قدره؟، ومن ثم تقول له : خلقت أعمى ولكن تهيم في كل أعور، فالعمى قدر أيضاً وهي تقلل من شأنه ‘إذ تربط دائرته ورغباته وما يحب بحدود العمى فهو لا يحب ولا ترنو نفسه إلا لقصور . بحسب وجهة نظرها . كالأعور مثلاً، ودخول المرأة نزاعاً وإن كان كلامياً مثل هذا يخدش حياءها ويؤذيها ،ونزهون أكملت النزاع من دون وضع حدود تضمن لها الحفاظ على كرامتها.

ومما عرف عنها أنها خفيفة الروح(السيوطي، ت.م، ص ٨٤) ، فأظنها كانت ذات مزح ثقيل وهذا المزح قُلب للجد، فطرقت بذلك نزهون باباً خاطئاً فلمّا وجدت نفسها في هذا النزال الكلامي استمرت، ولولا أن أبا بكرٍ ابن سعيدٍ حلف عليهما أن لا يزيد أحدهما على الآخر، " فقال المخزومي: أكون هجّاء الأندلس وأكفّ عنها دون شيءٍ؟ فقال: أنا أشتري منك عرضها فاطلب، فقال: بالعبد الذي أرسلته فقادني إلى منزلك، فإنّه لين اليد رقيق المشي، فقال أبو بكرٍ: لولا كونه صغيراً كنت أبلغك به مرادك، وأهبه لك، ففهم قصده وقال: أصبر عليه حتى يكبر، ولو كان كبيراً ما آثرتني به على نفسك! فضحك أبو بكر، وقال: إن لم تهج نظماً هجوت نثراً، فقال: أيّها الوزير لا تبديل لخلق الله. وانفصل المخزومي بالعبد بعدما أصلح الوزير بينه وبين نزهون" (المقري، ١٩٤٩، ص ١٩٣) لا نعرف أين كان سيتوقف هذا الهجاء .

٢ . ولّادة بنت المستكفي :

قالت في ابن زيدون (المقري، ١٩٤٩، ص ٣٣٧) :

ولُقِّبتَ المسدس وَهُوَ نعتٌ تُفارقك الحياةُ وَلَا يفارِق

فَلوطيٌ ومأبونٌ[٥٠] وزانٍ ودَيوثٌ[٤٨] وقرنان وسارق[٤٩]

وفي هذا الهجاء نجدها تتفنن في إظهار عيوبه الخَلقية والخُلقية، وترسمه رسماً ساخراً، فلقبته بالمسدس، ووصفته بأبشع الصفات التي قد ينعت بها الرجل؛ تشفيّاً(جمعة، ٢٠٠١، ص ٤٩٢). ومن قولها فيه أيضاً (صلاح الدين، ١٩٧٤، ص٢٥٣) :

إنّ ابنَ زيدون لَهُ .....[٥٢] تعشقَ .....[٥١] السّراويلِ

لَو أَبْصرت.....[٥٤] على نخلةٍ صَارَت من الطيرِ الأبابيل[٥٣]

وَقَالَت ترميه بِأَنَّهُ مَعَ غلامه عليّ (الصفدي، ٢٠٠٠، ص ٢٦٤) :

إنّ ابنَ زيدون على جَهله يعتِبني ظلما وَلَا ذنبَ لي

يلطَخني[٥٦] شَزراً[٥٧] إذا جِئْته كأنني جئتُ .....[٥٥] عَليّ

عندما قلب الحب لعداوة شمّرت ولّادة عن سواعدها وراحت تهجو ابن زيدون في ألفاظ شديدة القذى والحدة، تعبر عن حنق وغضب يسوقه الانتقام منه، فمن يقف على قصائد الحب والشوق والهيام يعلم جيداً بأن هذه الحبيبة استعمرته زمناً فهي تعلم جيداً من أين تؤكل الكتف؟، فتتطرق لمعانٍ تضفي على أبياتها واقعية أو هكذا توهم المتلقي في ذلك الزمن أو هذا، فلا تتحرج أن تتهمه في رجولته في قولها : فلوطيٌ ذو عيوب شديدة، وتتهمه بالسرقة وعلّها تقصد سرقته لاسمها عندما كتب رسالته لابن عبدوس مدعياً أنها ولادة صاحبتها. الرسالة التي عرفت بالهزلية لابن زيدون وكان كتبها على لسان ولّادة إلى ابن عبدوس الذي كان ينافسه على حبها(عبّاس، ١٩٦٢، ص ١٤٥) ، فالسرقة من سوء الخلق، فلا يرضى عنه الخالق ولا المخلوق؛ لانتهاكه الحرمات وسوء عمله في المخلوقات بحسب ما تقوله ولادة.

---

[٤٨] ديوث : الرجل الذي لا غيرة به على أهله. مادة (ديث) لسان العرب

[٤٩] البحر الوافر

[٥٠] مأبون :أَبَنَ الرجلَ يأْبُنُه ويأْبِنُه أَبْناً: اتَّهمَه وعابَه، مادة (أبنَ) لسان العرب

[٥١] كلمة بذيئة

[٥٢] كلمة بذيئة

[٥٣] البحر السريع

[٥٤] كلمة بذيئة

[٥٥] كلمة بذيئة

[٥٦] يلطخني: طخ: لطخه بالشيء يلطخه لطخاً، ولطخت فلاناً بأمر قبيح: رميته به. مادة (لطخ) لسان العرب

[٥٧] شزراً: شزر: نظر شزر: فيه إعراض كنظر المعادي المبغض. مادة (شزر) لسان العرب

وهي لا تبارح الألفاظ البذيئة لتصيب من تهجوه في مقتل؛ مما يدل على جرأتها وتمردها وعدم حيائها، وأظن ما فعله بها ابن زيدون خلّف فيها عقدة نفسية[٥٨]، فلا تبقِ للحب متسعاً وتتخذه خصماً وتصوّب سهام شعرها عليه؛ لتطفئ نار غيرتها وتقتصّ لذاتها من سيء ما وصفها به، فابن زيدون حتى وإن أحبها إلا أنه شهّر بها في الرسالة الهزلية، فلا يعقل أن تقول امرأة عن نفسها ما قاله هو على لسانها، أعمته الغيرة وأمسى في يوم وليلة من حبيب لخصم، فولّادة لا تتوانى في أن تنتهز الفرص لتحاربه بذات السلاح الذي ما فتئ يسترضيها به (الشعر) وهذا الذي وصلنا من هجائها فكيف كان الذي ضاع وما وصل ؟! لم يكن هجاء ولّادة مقتصراً على ابن زيدون بل هجت الأصبحي كذلك فقالت (يوسف، ٢٠٢٠، ص ١٢٨):

يَا أصبحيَّ اهناً فكم نعمةٍ جاءتك من ذِي العرشِ رَبِّ المِنَن[٥٩]

قد نِلتَ بأستِ ابْنك مالم ينَل .....[٦٠] بُوران أَبوهَا الحَسَّن[٦١]

وكذلك ابن عبدوس لم تقصّر فيه هو الآخر، فمرّت به ذات يوم وأمام بابه بركة تتولد بعد هطول الأمطار، وربما اختلطت بشيء من القذارة، وقد حشر أعوانه إليه، فقالت (الصفدي، ٢٠٠٠، ص ٢٦٣):

أَنتَ الخَصيبُ وهذهِ مِصرُ فَتَدفَّقا فَكِلاكُما بَحْرُ[٦٢]

وهذا البيت يأتي تضميناً لبيت أبي نواس الذي قاله مدحاً، ونرى ولّادة تأتي به هنا هجاءً، فهذا دل على بديهة ولادة وتفننها واتساع معرفتها بشعراء المشرق، وهذا الهجاء أطاح بابن عبدوس فأمسى من بعده طريح الحب (المقّري، ١٩٩٧، ص ٢٠٨).

إن أكثر ما عرف عن ولّادة سلاطة اللسان ،والجرأة في الهجاء القبيح للرجال والنساء، وعدم ترددها في ذكر العورات (جرّار، ٢٠١١، ص ١٩٢)، ونلحظ عنجهيتها وصعوبة مراسها ويعود بنا المطاف لسنوات الصبا من عمرها فما فقدته ولادة من مجد أهلها لم يكن شيئاً بسيطاً وسهلاً، فمن الواضح بأنها لم تتجاوز الألم والصدمة، فنجدها شرّعت أبواب مجلسها، واستقبلت أهل الأدب وخاصته، وانتقدت وناقشت وسعت دوماً لأن تكون مضرب الأمثال في الفكر والجمال وحسن المقال، وكل ذلك كان نتيجته اضطرابات نرجسية. فالنرجسي يتوق للإعجاب ويخافه في الوقت نفسه، وحين يدرك إعجاب الآخرين به، يرتبك

---

[٥٨] عقدة نفسية : عُقْدَة نفسيَّة: مشكلة تعترض حياة شخص فينشأ عنها اضطراب في النَّفس. ينظر: عمر، أحمد وآخرون، معجم اللغة العربية المعاصرة، ج٢، عالم الكتب، ط١، ٢٠٠٨م، ص ١٥٢٧

[٥٩] البحر السريع

[٦٠] كلمة بذيئة

[٦١] الحسن: هو الحسن بن سهل تزوج المأمون العباسي ابنته اسمها بوران وتبوأ بعدها مكانة عالية في الدولة. ينظر: نفح الطيب، ج٥، ص ٣٣٧

[٦٢] البحر الكامل

بشدة حتى إنه لا يرضى بشيء مما وصلوا إليه مما انبثق من ذاتهم المتعاظمة (جاكوبي، ٢٠٢٠، ص ١٧٤).

٣. مهجة التيّاني:

صاحبة ولادة، كانت من النساء الجليلات، تعلقت بها ولّادة ولزمت تأديبها، إلا أن أمراً حدث بينهما كما يحدث بين الكثيرات، فهجت مهجة معلمتها، قالت (المقّري، ١٩٩٧، ص ٢٩٣):

ولادة قد صرت ولّادةً مِن غيرِ بعلٍ فضح الكاتمُ

حَكَت لنَا مَريَم لكنّهُ نخلة هذي ذكر قائمُ[٦٣]

ترمي مهجة ولّادة بأن تتهمها بأنها حملت ووضعت من دون زواج، فتأتي بالخبر مع الدليل فتقول : حكت لنا مريم، إشارة هنا للحمل عبر الربط بين قصتها ولادة وقصة السيدة مريم بنت عمران، لا أجد الربط هنا متكافئاً؛ فإن صدقت مُهجة سيكون زناً وفي قصة السيدة مريم نتحدث عن معجزة ربانية مرتبطة بولادة نبي كريم.

المهم لدى مهجة أن تخبر ولّادة عندما تصلها هذه الأبيات بأن سرّها فضح، فتشهّر بها أمام الملأ، وعلى الرغم من الرابطة القوية التي كانت بين الاثنتين إلا أن خلافاً دب بينهما، وعن سبب الخلاف أن ولّادة كانت ترى في نفسها الأفضلية كونها أميرة، وما مهجة إلا ابنة رجل من عوام الناس، تعلقت بها ولزمت تأديبها حتى جرت السنوات وتقدّم العمر بها وتفوقت مهجة عليها في الجمال والشباب؛ مما أثار حفيظتها وأشعرها بالدنو أمام تلميذتها فقلّ الفارق بينهما، ولاسيما أن الأنظار من قبل الرجال أصبحت تمتدّ ناحية مهجة من دون ولّادة (جرّار، ٢٠١١، ص ١٠١).

فولّادة شخصية مؤذية كما اتضح فآذت مهجة بأن طعّمتها بأفكارها وجرأتها؛ فالتلميذ ابن أستاذه وهذا ما حصل بينهما، فبالنظر لهذه الأبيات نرى بأن مهجة ترمي سهامها على ولّادة كما كانت تفعل الأخيرة بكل من غضبت عليه، فتضربها في عرضها غير مهتمة بعظيم الجرم ولا محترمة كون هذه السيدة كانت مؤدبتها يوماً ما، وعند العودة لمحطات حياة ولّادة نجدها كانت تسلك المسلك نفسه، فأظن بأن الأقدار أفحمت ولّادة بمهجة وبارزتها بسلاحها الذي راح ضحيته الكثيرون، فهل يمكننا القول بإن نرجسية ولّادة أصابت مهجة أيضاً؟ إلى حد بعيد نعم. كما أن طبيعة شخصية ولّادة تخبرك بأنها مزاجية تحب هذا فترفعه وتكره ذاك فتخسف الدنيا به، فلا شك أنها كانت تعامل مهجة بنفس الأسلوب، والمرأة غير الرجل والويل كل الويل إذا كادت على أخرى تعدّ منافستها في ذات الوقت، فلا شيء أقسى على المرأة من امرأة تنافسها جمالاً وعلماً وثقافة.

[٦٣] البحر السريع

الخاتمة

المرأة الأندلسية الشاعرة حرّة كانت أم جارية اعتنقت كل المباحات التي أعطاها إياها المجتمع فيما يتعلق بالتحرر، فقد تمتعت في ذلك العصر بالمكانة البارزة في مناحي الحياة الاجتماعية والفكرية، ساعد في ذلك وجود أنماط تربوية تتسم بالتساهل والتحرر، وعند دراسة المقطوعات الشعرية للشواعر الأندلسيات، والكشف عن التجربة الشعرية لديهن فيما يختص بالجانب النفسي في كل من: الاعتداد بالنفس والجرأة، توصلنا لنتائج عدة منها:

١- الاعتداد بالنفس والجرأة منبعه واحد وهو: الأسرة وطبيعة الحياة الاجتماعية والسياسية منذ الطفولة، ومن ثم المجتمع والقيود التي يفرضها والحرية التي يعطيها للمرأة، والمجتمع الأندلسي أعطى المرأة حريات كبيرة، جعلت منها ظاهرة جديدة في تاريخ الشعر العربي. ووجدت الباحثة أن الاعتداد بالنفس والجرأة ما هما إلا وجهين لعملة واحدة، فالثقة بالنفس تأتي على درجات وهي في عمقها قد تأتي محمودة أو مذمومة، وما كان الهجاء الفاحش والجرأة في التغزّل بالرجال إلا وجهاً مذموماً لهذه الثقة الزائدة . إن صح التعبير ..

٢- استطاعت الشواعر الأندلسيات إثبات وجودهن وقدراتهن الشعرية، فافساح المجال لها بالتعليم والعمل ضمن الوظائف التي كانت حكراً على الرجال في وقت مضى، جعل منها شخصيةً جريئة تقابل هذا الرجل كحبيب، وشريك، وندٍ .

٣- ارتبط الإبداع الشعري لديهن بالحرية والتحرر، فكان التحرر باباً لأغراض شعرية جديدة منها : التغزل بالرجال .

٤. أدت النوادي الأدبية التي حرصت عليها بعض الشواعر الأندلسيات، باباً لتبدّل القيم عند البعض، فأصبحت الشاعرة هي من تستقبل الرجال وتحكّم أعمالهم الأدبية وتجادلهم فيها وتناقشهم، وما خلت هذه النوادي من الإعجاب والغزل؛ فكم من قصص ولدت في أروقتها منها ما خلّده التاريخ كقصة ولّادة وابن زيدون وابن عبدوس.

٥- أدى تقبّل المجتمع للمرأة المتهاونة بحجابها، المبتذلة في حديثها، إلى بروز الكثير من الظواهر الاجتماعية الجديدة على العرب والمسلمين، منها: جراءة الغزل والهجاء.

المصادر والمراجع:

١. ابن بشكوال، أبو القاسم.(١٩٥٥م). الصلة في تاريخ أئمة الأندلس، تح: عزت الحسيني، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢

٢. ابن طيفور، أبو الفضل. (١٩٠٨م) بلاغات النساء، تح: أحمد الألفي، مطبعة مدرسة والدة عباس الأول، القاهرة

٣. ابن منظور، لسان العرب، تح: عبدالله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة

٤. أبو نصر، محمد.(١٩٦٦م) جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، الدار المصرية للتأليف والنشر، القاهرة، ط١

٥. الأندلسي، أبو الحسن. (١٩٥٥م). المغرب في حلى المغرب، تح: شوقي ضيف، ج٢، دار المعارف، القاهرة، ط٣

٦. البحيري، عبدالرقيب. (١٩٨٧م). الشخصية النرجسية، دار المعارف،القاهرة، ط ١

٧. البلنسي، ابن الأبار. (١٩٩٥م). التكملة لكتاب الصلة، تح: عبد السلام الهراس، ج٤، دار الفكر للطباعة، لبنان

٨. بوفوار، لسيمون دي (ت. م) كيف تفكر المرأة؟ ،المركز العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١

٩. بيل، آرثر. (٢٠١١م) الفوبيا، تر: عبدالحكم الخزامى، الدار الأكاديمية للعلوم، القاهرة، ط١

١٠.جاكوبي، ماريو. (٢٠٢٠م) التفرّد والنرجسية، تر: عبدالمقصود عبدالكريم، دار العين للنشر، القاهرة، ط١

١١.جرّار، صلاح. (٢٠١١م) ولادة بنت المستكفي، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمّان، ط١

١٢.جمعة، أحمد. (٢٠٠١م) نساء من الأندلس، اليمامة للطباعة والنشر، بيروت، ط١

١٣.جولمان، دانييل.(١٩٩٠م) الذكاء العاطفي، تر: ليلى الجبالي، عالم المعرفة، الكويت

١٤.حجي، عبد الرحمن.(١٩٨١م) التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، دار القلم، دمشق، ط٢

١٥.الحموي، ابن حجة.(٢٠٠٤م) خزانة الأدب وغاية الأرب، تح: عصام شقيو، ج١، دار ومكتبة الهلال، بيروت

١٦.الحموي، ياقوت.(١٩٩٣م) معجم الأدباء، تح: إحسان عباس، ج٤، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١

١٧.الحنبلي، عبدالحي.(١٩٨٦م) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح: محمود الأرناؤوط، ج٥، دار ابن كثير، دمشق، ط ١

١٨.الزركلي، خير الدين.(٢٠٠٢م) الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط ١٥

١٩.زيدان، إبراهيم.(٢٠١٢م) نوادر العشّاق، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة

٢٠.السقطي، الأندلسي.(١٩٣١م) آداب الحسبة، تح: ليفي بروفنسال . كولان، مطبعة إرنست لورو، باريس

٢١.السيوطي، عبدالرحمن.(١٩٩٧م) نزهة الجلساء في أشعار النساء، مكتبة القرآن، ط١
٢٢.شافع، راوية.(٢٠٠٦م) المرأة في المجتمع الأندلسي . من الفتح الإسلامي للأندلس حتى سقوط قرطبة .، عين للدراسات والبحوث، مصر، ط١
٢٣.الشنتيري، أبو حسن. (١٩٣٩م) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، مج١، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة
٢٤.شيخو، رزق. (١٩١٣م) مجاني الأدب في حدائق العرب،ج٦، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ط١
٢٥.صادق، عادل. (١٩٩٣م) الغيرة والخيانة، دار الشروق، بيروت، ط١
٢٦.صبحي، تيسير. (١٩٩٢م) الموهبة والإبداع . طرائق التشخيص وأدوات الحوسبة، دار إشراق للنشر، عمّان، ط١
٢٧.الصفدي، صلاح الدين. (٢٠٠٠م) الوافي بالوفيات، تح: أحمد الأرناؤوط . تركي مصطفى، ج٢٧، دار إحياء التراث، بيروت
٢٨.صلاح الدين، محمد.(١٩٧٣م) الوافي بالوفيات، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط١
٢٩.عباس، إحسان.(١٩٦٢م) تاريخ الأدب الأندلسي . عصر الطوائف والمرابطين .، دار الثقافة، لبنان، ط١
٣٠.عباس، إحسان. (١٩٦٠م) تاريخ الأدب الأندلسي . عصر سيادة قرطبة .، دار الثقافة، بيروت، ط١
٣١.عبدالجبار، عبدالله وآخرون. (ب. ت) قصة الأدب في الحجاز، مكتبة الكليات الأزهرية، مصر، ط١
٣٢.عزّام، عبدالوهاب. (٢٠١٣م) المعتمد بن عبّاد، مؤسسة هنداوي
٣٣.عمر، أحمد وآخرون. (٢٠٠٨م) معجم اللغة العربية المعاصرة، ج٢، عالم الكتب، القاهرة، ط١
٣٤.عنان، محمد. (١٩٩٧م) دولة الإسلام في الأندلس، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٤
٣٥.عيسى، فوزي. (٢٠٠٧م) الهجاء في المجتمع الأندلسي، دار الوفاء لدنيا الطباعة، الإسكندرية، ط١
٣٦.عيسى، محمد. (١٩٨٢م) تاريخ التعليم في الأندلس، دار الفكر العربي، مصر، ط١
٣٧.غالب، مصطفى. (١٩٨٣م) سيكولوجية الطفولة والمراهقة، دار الهلال، بيروت، ط ٥
٣٨. فهمي، مصطفى. (١٩٥٥م) الدوافع النفسية، دار مصر للطباعة، مصر، ط٣
٣٩.فوّاز، زينب.(١٣١٢هـ) الدرّ المنثور في طبقات ربّات الخدور، المطبعة الكبرى الأميرية، مصر، ط١
٤٠.القالي، أبو علي.(١٩٢٦م) الأمالي، تح: محمد عبد الجواد الأصمعي، دار الكتب المصرية، مصر، ط٢

٤١.القذّافي، رمضان.(١٩٩٣م) الشخصية نظرياتها اختباراتها وأساليب قياسها، منشورات الجامعة المفتوحة، المغرب، ط١
٤٢.القرشي، سليمان. (٢٠١٥م) صورة المرأة في الشعر الأندلسي، دار منشورات التوحيدي، المغرب، ط١
٤٣.ك. هول، ج. لندزى. (١٩٩٠م) نظريات الشخصية، تر: فرج أحمد وآخرون، دار الفكر العربي، مصر
٤٤.كروم، سارة. (٢٠٢٠م) التعلق العاطفي المرضي، تكوين للنشر والتوزيع، جدّة، ط١
٤٥.المراكشي، ابن عذاري. (١٩٨٣م) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، تح: ج. س. كولان، ج٢، دار الثقافة، بيروت، ط٣
٤٦.المراكشي، محي الدين. (١٩٤٩م) المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين، تح: محمد العريان . محمد العلمي، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ط١
٤٧.المشرف، جاسم. (٢٠١٢م) العاطفة كالماء . مقاربة سيكولوجية فنية في العاطفة وتداعياتها ،. دار الفكر العربي، القاهرة، ط١
٤٨.المقرّي، التلمساني. (١٩٩٧م) نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تح: إحسان عبّاس، ج٤، دار صادر، لبنان ،ط١
٤٩.المقرّي، التلمساني. (١٩٩٧م) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح: إحسان عبّاس، ج١، دار صادر، بيروت، ط١
٥٠.المقرّي، التلمساني. (١٩٩٧م) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح: إحسان عبّاس، ج٣، دار صادر، بيروت، ط١
٥١.المقرّي، التلمساني. (١٩٩٧م) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح: إحسان عبّاس، ج٥، دار صادر، مصر، ط١
٥٢.يوسف، واقدة. (٢٠٢٠). ديوان شواعر الأندلس، دار ومكتبة سامرّاء، العراق، ط١